



ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: <https://eduj.uowasit.edu.iq>

Prof. Jassim Hussein
Wasit University /
College of Education
for Human Sciences.

Ihsan Nasser Hussein
Imam Al-Kazem
University College /
Wasit departments.

Email:
jsultan@uowasit.edu.iq
ihsan20172018@gmail.com

Keywords:

Identity - crisis - bliss -
Basra

Article info

Article history:

Received 15.May.2022

Accepted 17.Aout.2022

Published 30.Nov.2022



The problem of identity and self-affirmation in the novel (Black Sand) by Asaad Al-Lami.

A B S T R A C T

Among the issues, that the postmodern Arab novel was concerned with is the issue of the search for identity, which constituted an obsession for the Arab person, and raised in himself many questions about his relationship with his country and society. This issue and other sensitive issues tried to address black sand novel through A biography of its hero (Naim Daye), who suffered - throughout his life - from a feeling of alienation and inferiority; He lived of unknown parentage, with a white skin color different from that of his (adopted) parents, and what added to his suffering was his conservative society, which finds in the unknown lineage a shame that has no limits.

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: <https://doi.org/10.31185/eduj.Vol49.Iss3.3367>

إشكالية الهوية وإثبات الذات في رواية (الرمل الأسود) لأسعد اللامي.

أ.د. جاسم حسين سلطان الخالدي م.د. إحسان ناصر حسين الزبيدي

جامعة واسط/ كلية التربية للعلوم الإنسانية. كلية الإمام الكاظم الجامعة/ أقسام واسط.

ملخص البحث:

من بين القضايا الثقافية التي اهتمت بها الرواية العربية ما بعد الحداثية هي قضية البحث عن الهوية؛ إذ شكّلت هاجسًا لدى الإنسان العربي، وأثارت في نفسه الكثير من الأسئلة حول علاقته بنفسه، ووطنه، ومجتمعه. هذه المسألة وغيرها من القضايا الحساسة حاولت رواية (رمل أسود) معالجتها من خلال سيرة حياة بطلها (نعيم ضايح)، الذي عانى -طوال حياته-

من شعور بالاغتراب والدونية؛ لأنه عاش مجهول النسب، وبلون بشرة بيضاء مختلف عن لون بشرة أبويه (بالتبني)، وممّا زاد في معاناته مجتمعه المحافظ الذي يجد في مجهوليّة النسب عازراً لا حدود له.

الكلمات المفتاحية: الهوية ، أزمة ، نعيم ، البصرة.

المقدمة:

تعدّ قضية الهوية واحدة من بين القضايا التي اهتمت بها الرواية العربية ما بعد الحداثيّة، فقد شكّلت هاجساً لدى الإنسان العربي، وأثارت في نفسه الكثير من الأسئلة حول كينونته الإنسانية، وعلاقته بوطنه ومجتمعه، ودينه، وتاريخه، وعاداته، وتقاليده، وحتى لغته. هذه المسألة وغيرها من القضايا الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية الحساسة حاولت رواية (رمل أسود) معالجتها من خلال سيرة حياة بطلها (نعيم ضايغ)، الذي عانى -على طول الرواية- من شعور بالاغتراب والدونية وانشطار الذات؛ لأنه عاش مجهول النسب، وبلون بشرة بيضاء مختلف عن لون بشرة أبويه (بالتبني)، فضلاً عن أنه الأبيض الوحيد بين أبناء الحيّ (حي العبيد) الذي يعيش فيه، وممّا زاد في معاناته مجتمعه المحافظ الذي يجد في مجهوليّة النسب عازراً لا حدود له، وفضيحة لا يمكنه التسامح معها. فأشكالية الهوية لم تكن موضوعاً عرضياً في الرواية وإنما شكّلت موضوعها الأساس ممّا جعلها مغايرة للكثير من الروايات التي عالجت قضية الهوية، وضياغ الإنسان العراقي المتواصل؛ ولعلّ الأسباب آنفة الذكر وغيرها فنّيّة وموضوعيّة وراء اختيارنا لهذه الرواية لتكون موضوعاً لبحثنا.

وبهدف الخروج بنتائج دقيقة ارتأينا معالجة إشكالية هوية البطل واغترابه في هذه الرواية من خلال توظيف مجموعة آليات إجرائية ومناهج نقدية كالنقد الثقافي والمنهج الوصفي التحليلي، فبعد أن سلطنا الضوء على غياب الهوية وما سببته من أزمة نفسية للبطل، تحدثنا عن أثر المجتمع في تعميق هذه الأزمة، كما توقفنا عند تغرب البطل عن محيطه وسفره إلى تايلند وما تركه هذا السفر من أثر كبير على طبيعة تفكيره، وعند سبب تشتت هويته وحزنه الدائم، وبعد ذلك تطرقنا للثنائيات الضدية التي انتظمت الرواية كثنائية الحرب والسلام، والمكان، والأسماء، وما تشير إليه من أن هذه الرواية ليست رواية سيرة شخصية وإنما أزمة مجتمعيّة قارّة وسيرة جيل كامل اکتوى بنار الأزمات السياسية والاقتصادية والثقافية، ولم يعثر بعد على هويته الحقيقيّة.

الرمال الأسود وغياب الهوية:

الهوية، من المفاهيم التي يصعب الإلمام بها وتحديدها؛ إذ مازالت تشهد تطوراً على المستويين: الدلالي والمفاهيمي؛ لاشتغالها في العديد من المجالات، ولاسيما العلوم الإنسانية ذات الطابع النفسي، والاجتماعي، والثقافي، والسياسي (عوار و عيش، 2017- 2018، ص8)، فأشكالية الهوية أو البحث عنها من الإشكاليات المعاصرة التي شغلت الدوائر العلمية ومراكز الأبحاث الثقافية؛ لأهميتها في دراسة التنمية والتخلف، ولا شكّ في أن هذه الإشكالية أشدّ حدّة في بلدان العالم الثالث المهمومة بالصراع بين الجديد والقديم وقضايا الحداثة والعولمة (الجزار، 2011، ص 23)، ولم يكن الإنسان العربي المعاصر - بفعل الانفتاح الثقافي - بعيداً عمّا يحصل في العالم من تغيرات على المستويات كافة؛ فما أن حلّ عقد السبعينيات من القرن الماضي حتى بدأنا نلتقط حضوراً لموضوع الاغتراب والبحث عن الهوية في الكتابات العربية، لاسيما في علم الاجتماع الذي تأثر بما شهده علم الاجتماع الفرنسي من معالجة لهذه القضية حين بدأت تطفو على السطح مشكلات البطالة والفقر والتهميش وانعدام اليقين والاندماج الاجتماعي والهويات (دوبار، 2008، ص11)، فضلاً عن معالجة الكتاب العرب لقضية ضياغ الهوية وتشتت الذات العربية بعد النكبات الكبرى التي تعرّضت لها على امتداد سنوات طويلة.

قبل الحديث عن رواية (الرمال الأسود) نودّ الإشارة إلى أن الروائي (أسعد اللامي) هو كاتب عراقي، من مواليد محافظة ميسان حصل على شهادة البكالوريوس من كليّة الزراعة جامعة بغداد، فضلاً عن حصوله على عضويتي اتحاد الأدباء

واتحاد الصحفيين. نشر أولى قصصه في مجلة (الطليلة الأدبية) سنة 1984، ثم توالى إصداراته بعد ذلك، فأصدر مجموعته القصصية الأولى (بقايا حلم)، فكانت الحرب العراقية-الإيرانية 1980-1988 وتدايعياتها ثيمتها الرئيسية. توفي في العاصمة بغداد بعد معاناة مع مرض السرطان عام 2019م (عادل، 2019). روايته الرمل الأسود (اللامى، 2016) هي الرابعة بعد رواياته (نهايات الخريف .. بدايات الشتاء)، و(أنسام كامل)، و (شباك أمينة)، تحكي قصة (طفل لقيط)، تربى في حيّ للعبيد في مدينة البصرة، وظلّ يشعر بتعزّب عن محيطه، فما استطاع أن يكون منهم؛ لأنّ لونه بشرته مختلف عنهم، ولا أفلح في الخروج عن عوالمهم؛ لأنّه منذ أن فتح عينه وجد نفسه واحداً منهم، إذ تربى في أحضان أبوين مفروضين: (ضايغ) الذي أكلته الحرب في ثمانينيات القرن الماضي، و(تقيّة) التي وجدت فيه تعويضا إلهياً؛ لما حرمت منه، فكانت حانية عليه كما لو أنّه خرج من رحمها.

لقد ألقت تلك الحادثة الإنسانية أزمة حقيقية لم يستطع (نعيم) الفكّك منها؛ منذ أن وجده (ضايغ) ملفوفاً بقطعة قماش أمام بيته في (حيّ العبيد)، في مجتمعٍ محافظٍ، يجدّ في ذلك عازراً لا يمكن الخلاص منه.

ومن هنا بدأت أزمتها النفسية، التي أودت به إلى طبيب نفسي، لكن هذه الأزمة تزايد أثرها عليه؛ إذ كان المجتمع البصري سبباً رئيساً لإيقاظها كلما بدت علامة على خوفها، فهو لم يستطع أن يسمع أحداً من زملائه أن يشير إليه بأنه خير مثل على الطفرة الوراثة "يا جماعة أحسن مثال على الطفرة الوراثة، زميلنا نعيم، أمه وأبوه أسودان، وهو أبيض" (اللامى، 2016، ص172). فما كان أمامه إلا أن يضربه، ويهرب من المدرسة "حتى سوت تقيّة الموضوع مع المدير" (اللامى، 2016، ص172)؛ لأنّه غمز لما هو أبعد. وحتى (تومان)، صاحب عربة النفط، جارهم القريب، فما إن يعود ويراه أمام بيتهم، يناديه بتهمك: "ها الأبيض، ابن ضايغ، شلونك، أمك تقيّة شلونها" (اللامى، 2016، ص97). هذا جزء يسير ممّا يعانيه؛ فضلاً عن أزمتها الداخلية التي شارك (القدر) في صياغتها، حين جعل اسمه ملازماً لـ (ضايغ)، فكأنّ هذا الاسم هو (منبّه دائم) على ضياعه، وفقدان هويته التي بقي يبحث عنها على طول الرواية.

المجتمع ظالماً

يمكن النظر إلى أزمة الهوية بوصفها "جملة العوائق التي تعترض محاولات الشخص لتحديد نفسه...بقول آخر هي الصعوبات التي تعوق رغبة الإنسان في أن يكون معترفاً به من الآخر" (الجزار، 2011، ص25) ولا شك في أن الآخر عامل فاعل ومؤثر في تكوين الذات المختلفة وتحديد هويتها وتشكيل وعيها، وهو -دائماً- يضمّر لها العداة ويحاول تدمير إنسانيتها؛ لأنّه يعلّق -بطريقة جبرية- وجودها بين لحظتي الماضي والمستقبل (الرويلي و البازعي، 2005، ص21-22)، وليس ذلك فحسب، بل يعمل على تهميشها، واستبعادها بحجة المحافظة على هويته الخاصة، وقد مثل المجتمع في رواية (الرمل الأسود) دور هذا الآخر، فالمجتمع الذي عاش فيه (نعيم) شكّل واحدة من أهم المعوقات التي منعتة من معرفة هويته، وتحقيق ذاته، والإحساس بكينونته المستقلة؛ لأنه "مجتمع يفتح أبوابه على مصاريحها للآخر، وفي الوقت نفسه يرفضه، ويحرص على إقصائه وتهميشه، ويسعى بكل السبل إلى صهره في أتون ثقافته" (خيري، 2014، ص44) غير أنّ نعيم/الراوي أراد أن يبرز ساحة مجتمعه في أن يكون سبباً رئيساً في أزمتة؛ ففتح أمام نفسه الحدود ليسافر إلى (تايلاند)، موقداً من دائرته، لكنّه بقي يعاني الأزمة نفسها؛ لأنّ أزمتة - ببساطة - تعني "عدم القدرة على تحديد الهوية" (نورس، 2014، ص83)، فهو لم يستطع معرفة أبويه، على الرغم من مساعيه الحثيثة مع (تقيّة) التي ظنّ أنّها تعرف أمه، لكنّه لم يجد ما يشفي قلبه، ويعود ليسأل عن أمه فيأتي الجواب من (تقيّة) أنّها "رحيمة كلبها رهيف، لفتك بالكماط وشردت تخاف تراب الكاع ياكلك، ولكنني عضت على الكلمات ولم أدعها تغلت من فمي" (اللامى، 2016، ص133).

من الواضح أنّ السيدة (تقيّة) تريد أن تبرز ساحة المرأة وترمي الخطأ الذي اقترفاه على كاهل الرجل وحده، وهو ما أكّده كلامها في مكانٍ آخر ردّاً على سؤال له: "أيّ أبٍ منهم؟ أقول لها بقهر، تخزني بنظرة مؤنّبة، ترد بغضب مقموع" الكوادر، ابن الكهاب" العافك وشرد، ما وكفه مستحي ولا ضمير" (اللامي، 2016، ص75).

ويبدو أنّ (الراوي/نعيم) وعلى لسان (تقيّة) أراد أن يبعث رسالة، وأن يخلي ساحتها، فهو حتّى حين اختلى مع الأرملة في حركة واضحة من (تقيّة) وجدنا المرأة تردّد: ربّي مغفرتك" (اللامي، 2016، ص73). وكأنّها تريد المغفرة من الله أولاً، ومن زوجها الغائب، من أجل غرض مشروع "أريدك بالحلال حتّى أمارس معك كلّ أنواع الحرام" (اللامي، 2016، ص74).

لعلّ النسق المضمّر - هنا - أنّ الراوي يريد أن يعالج موضوعه (الحرب العراقية الإيرانية) وتداعياتها على المجتمع العراقي عبر تسليط الأضواء على تلك الأرملة الشابة التي لم تُجر إلى الرذيلة، إلّا بسبب خسارتها زوجها في حرب لعينة، لذلك فهو جعلها في النهاية تخرج مبرّاة من الخطأ، بمساعدة (نعيم) الذي لم يشأ أن يهب المجتمع (نعيماً) آخر "لكنّي في اللحظة الأخيرة مع عودة تقيّة من مشوارها المبيت والمقصود تداركت أمري وهربت، تلاحقني نظرات الأرملة الدامعة والساخطة في ذات الوقت" (اللامي، 2016، ص74).

التغرّب عن المحيط

الاغتراب، هو شعور الإنسان بالانفصال عن محيطه، ولا يشترط فيه أن يبتعد عن وطنه، فقد يكون بمعنى العزلة داخل الوطن إذا ما شعر الإنسان بعدم الانتماء لمجتمعه؛ بسبب ممارسات الأخير وسلوكياته (خليفة، 2003، ص21)، كما لا يحصل الاغتراب إلّا مع تأزم علاقة الأنا بالآخر، فالمواقف التي مارسها (نعيم) ما هي إلّا جزء من أزمته الحقيقية، أزمة فقدان الانتماء وفشله في تحديد هويته الشخصية والاجتماعية وما نتج عن ذلك من شعور بالتقصير، والاكتئاب، والأرق، والوهن، وضياح الهدف؛ فضلاً عن عدم القدرة على بناء علاقات اجتماعية حقّة (دوبار، 2008، ص290).

فالتغرّب الذي عاشه مع محيطه، وعدم قدرته - فرداً - على التعايش مع المجتمع، وفشل الأخير في أن يروض (نعيم)، دليل على عقم المنظومة الاجتماعية في معالجة حالة مثل حالة (نعيم)، وهو ما جعله في وقتٍ من الأوقات يفكر ب (الانتحار)، وفشله هو الآخر في أن يكتف نفسه لما هو فيه بعدما حظي بألمٍ مثل (تقيّة). لكنّه بقي حبيس أزمته: أزمة البحث عن الهوية، (ضايح) بالنسبة له مجرد صورة علقت في ركن من البيت "يبدو غائباً، موعلاً في النسيان، وسط فضاء الصورة الرمادي" (اللامي، 2016، ص45). وزاد من قتامة الصورة أنه جعل النسر المعدني خافضاً رأسه يتطلّع إلى الأرض، كأنّه يبحث عن طريدة جديدة، إشارة منه إلى الوطن الذي يأكل أبناءه، ويتركهم في غياب دائم؛ فوجود الصورة هو في ذاته يعني الغياب الدائم، وما بالك إذا ما حُمّلت دلالاتٍ أخرى؟ (نعيم) قد يكون الطريدة الجديدة، كما تشير نظرة (النسر المعدني).

الحننُ هويّة

يبدو السؤال حول طبيعة الحزن الذي يلفّ وجه (نعيم) ومن هم على شاكلته ساذجاً؛ بل هو جزء من شخصيّة الجنوبي بشكلٍ عام؛ لما عانى قديماً ويعاني في الوقت الحالي، ألا يكفي للمرء أن يكون حزيناً، وهو يرى تلك الأرملة ويسمع حكايتها "كانت صغيرة في السن... عرفت أنّها أرملة جنديّ، قُتل في الحرب الأخيرة مع الأمريكان" (اللامي، 2016، ص72)، فالحروب والفقر والمرض والتخلّف تجعل الفرد حزيناً كمداً طول عمره، ولعلّ هذه الحزن الشفيف أضحي ملمحاً جمالياً يمتازون به عن سواهم، تقول (الأرملة الشابة) موجّهة كلامها لنعيم: عيونك حلوة؛ لكن فيها حزن (غميغ) أي عميق فضلاً عن هذا الحزن الذي وهبته الحروب ل (نعيم وسواه) وسم لغتهم بنوع من السخرية والتهمك؛ ف (نعيم) يشبه نوط الشجاعة

بسدادة معدنية لزجاجة بيبسي كولا؛ دلالة على أنه شيء مبدول لا قيمة له، وتبدو السخرية بأشدّها وهو يصف (عضوه الذكري) الذي قطع جزءاً منهم (المضمد) وهو يردد (سلامة يا وطن) ... وحين يصل إلى (أطفالك زلم)، يكون قد جَزَّ جزءاً منهم؛ بأنّه "باتري راديو حجم كبير" (اللامي، 2016، ص82).

تشكّت الهوية

هوية الإنسان، تعني جوهره وحقيقته وإحساسه بقيمته، وبالانتماء لذاته ولمجموعه، بها يتميّز عن غيره ويعبّر عن ذاته، وهي "التصور الذي يعمل الإنسان حول خصائصه ونقاط قوته وضعفه ومنشأه وعلاقته الاجتماعية وقيمه وأهدافه الحياتية" (كوزين، 2010، ص92). ووسط ضياع هوية (نعيم) فإنّه لا ينجأ لطائفة دون أخرى، ولا لكتاب دون آخر، حتّى حين تطلب منه (تقيّة) الصلاة، يخاطب نفسه: "كيف تريدني أصلي، أنا لا أعرف أبوي على أيّ دينٍ أو مذهب". فوجود الكُتب السماوية في رفّ مكتبته، يستبطن نسقاً مضمراً، يعني فيما يعني غياب الهوية وعدم التبعية، وأنّ الأديان كلّها جاءت من أجل الإنسان نفسه. وغالى كثيراً حين جعلها بمرتبة واحدة مع كتاب شعر (لاوتسه) (اللامي، 2016، ص31) وتكرّر ذلك المشهد في مكان آخر حين جمعها مع كتب أخرى "في الركن فوق راس السرير رف من خشب أنبوسي عتيق صفت عليه مجموعة من الكتب، دفعني الفضول، وجدت بينها الكتب السماوية الثلاث: التوراة، والإنجيل، والقرآن... إلى جانبها في الطرف البعيد رقد كتابان" (اللامي، 2016، ص125). ويمكن أن نلمح نسقاً آخر أراد أن يشتغل عليه الراوي، وهو يعيش في منطقة محتدمة، صار القتل فيها نهائياً جهازاً، تحت لواء الدين، بأنّ هذه الأديان التي جمعها رفّ واحد، يمكن أن تتعايش، طالما كان هدفها الأول والأخير هو سعادة الإنسان، وبناء الحياة.

ولعلّ مجيء عدد من الخبراء من مختلف الأصقاع، وجعلهم في مكانٍ واحدٍ يتحاورون؛ لكنهم لا يختلفون، خير مصداق لتلك القراءة التأويلية، أو لذلك النسق المضمّر الذي أراد أن يرسله الروائي إلى قارئه. ولذلك فهو اقترح صعود طبقة من المجتمع تتحمّل المسؤولية، وتقف في منتصف الطريق، على غرار ما فعله (السيخ)، حين احتدم الصراع بين الإسلام والهندوسية، فاقتروا حالةً وسطيةً بينهما، تأخذ من هذا ومن ذاك. ولا ضير في أن تلد تلك الطبقة الحاملة للمودة طبقةً وسطيةً، كما وُلدت (السيخية) نتيجة الصراع الإسلامي الهندوسي؛ لتتهي حالة التعصّب الذي ظلّ قائماً بين أتباع الدينين.

ووسط هذه الزواج الطائفية التي تحاول أن تُرحّز المجتمع عن قيمه وجذوره، تتفاقم أزمة (نعيم) الشخصية؛ لكنّه لم يجد بداً من أن يبحث عن حلٍّ لأزمة مجتمعه، طالما أنّ أزمته عصية على الحلّ.

الثنائيات الضدية

إنّ ما نلاحظه في رواية (الرمال الأسود) من ثنائيات ضدية بيّنت -لنا على الأقلّ- أنّها ليست روايةً شخصية، أو روايةً بطل مأزوم؛ لعلّة اجتماعية، بل هي أزمة جيلٍ كاملٍ، ليس في البصرة وحدها، بل في البلد كلّه. لكنّ قيمة عمل الروائي - بما يملك من قدرة كتابية - أنّه حولّ أزمة (نعيم) من كونها أزمة بطل، ولد لقيطاً لمعاشره جنسية غير شرعية، ولم يعثر على هويته الحقيقية، إلى أزمة مجتمعية قارة؛ لجملة أسباب، بعضها سياسية، وأخرى اجتماعية، وثالثة اقتصادية، وقد تكون ثقافية بمعنى أوسع. أي أنّها أزمة جيلٍ كاملٍ، اكتوى بنار الحروب، والحصار، والاحتلال، والعوز، والفقر؛ لذلك انتظمت الرواية على عددٍ من الثنائيات الضدية التي قد لا تأتي بمعناها البلاغي "أنّ يؤتى بالشيء وبضده في الكلام" (العلوي، 2002، ص377)؛ لأنّها في الشعر هي غيرها في الرواية، ففي الشعر يمكن أن تسمى بالثنائيات اللغوية، في حين تأتي في الرواية عبر التداوي الحرّ. ويمكن أن نجترح له تعريفاً مفاده، أنّ الروائي يأتي بصورة ما أو مشهد ما، يكون سبباً في استحضار صورة أخرى مضادة، فالصورة الأولى هي نسق ظاهر، فيما تولّف الثانية نسقاً مضمراً، وبمعنى آخر أن رواية

(الرمال الأسود) قد بنيت على هذه الثنائيات الضدية التي تجيء على شكل التداخي الحر الذي تمّ توظيفه بطريقة خاصة؛ إذ تُبنى من شيءٍ منظوريّ، وشيءٍ يُستدعى من الذاكرة، فهو ليس حاضرًا في هذه اللحظة؛ لكنّها حاضرة في ذهن الشخصية.

ثنائية المكان

هناك في الرواية فضاءان روائيان: الأول البصرة، والآخر تايلند، فكلُّ ما فيهما من شخصيات، ومواقف، وعادات، وسلوكيات، يخضعها (الروائي) إلى فكرة الثنائيات الضدية التي تولّف (الثيمة) المجاورة والساندة (للثيمة) الرئيسة في الرواية؛ لأنّها جزءٌ من تفكير بطل الرواية، فحضور جزءٍ من الفضاء الثاني يستدعي في ذاكرته جزء من الفضاء الآخر (الغائب).

فمن الثنائيات التي تواجهك صورة رجل الأمن في تايلند، وطريقة معاملته للمسافرين في مطار تايلند، ورجل الأمن ليس رجلاً غليظاً، بل هي موظفة أمن ناعمة، وهو ما استدعى حضور صور رجال الأمن في مدينته البصرة "بأيديهم الضخمة وشواربهم الغليظة، ومسدساتهم التي يتبارون في إظهارها للناس بشكلٍ مكشوف " (اللامى، 2016، ص127).

فالنسق المضمّر - هنا - هو رغبة الكاتب في توجيه اللوم للسلطات الحاكمة التي حوّلت المجتمع إلى "خوذة عسكرية" (اللامى، 2016، ص51). وانتقاد المنظومة الأمنية التي تؤكد الشكل أكثر ممّا تؤكد الجوهر، لذلك لا نستغرب إذا ما استقطبت هذه المنظومات الأمنية الأميين والفاشلين، وهنا يستحضر (نعيم) صورة الانضباط العسكري وهم "يمسكون الهويات بالمقلوب فنضحك، نضحك بالبرّ بطبيعة الحال" (اللامى، 2016، ص50).

فثنان ما بين الصورة (المرأة الناعمة)، و(الزنابير)، كما يحلو للعراقيين تسمية الانضباط العسكري وقت ذاك.

وتتداعى إلى متن الرواية الثنائيات، وكأنّها بُنيت عليها؛ إذ لم تمرّ شخصية أو مكانٌ أو موقف مرّ به (نعيم) إلا استدعى من ذاكرته شخصية مضادة، أو مكاناً مضاداً، أو موقفاً مضاداً؛ إلى حدّ مبالغ في بعض المواقف؛ إذ تحوّل المتن الروائي إلى متن إدانة وانتقادٍ فاضح، لا فنّ فيه، ولا نسقاً مضمراً ينظمه.

كان (نعيم) مهووساً في البصرة التي لم يتسلّل إليه شكٌّ بأنّه وُلِدَ من رحمها؛ وهو أمرٌ يحقّ له نصف هويته المفقودة، وقادّه إلى أن يحملها في قلبه وهو في تايلند؛ فليس صدفةً أن تكون المحاضرة التي ألقاها البروفيسور (تشيكو واتا نابي) تدور حول سؤالٍ مفاده: "لماذا يبدو الكائن في المدن البحرية أكثر مرحاً واحتفاءً بالحياة من نظيره في مدن الصحراء؟" (اللامى، 2016، ص7). وإجابة هذا السؤال تستدعي منه نسف هذه الفرضية تماماً، فالبصرة خيرٌ مثالٍ على ما يناقضه ويضاده، فقد أنعم الله عليها بخيراتٍ كثيرة، ليس أولها شطّ العرب، ولا النفط، ولا النخيل، لكنّ الحزن صار صفةً دائمةً ولصيقةً بالشخصية البصرية، والعراقية على وجه عام. وقاده هذا السؤال إلى تداعٍ حرّ؛ إذ راح يتحدث عن البصرة، بما كانت عليه، وما وصارت إليه في الزمن الحاليّ "كانت درّة المياه الدافئة يا دكتور، بستان الصحراء الظليل، حين كان الماء يندى وجهها الجميل ... أصبحت بعد أن أحاق بها الجذبُ خربةً تغمرها الرمالُ التي لم تجلب لأناسها سوى الكدر والخراب" (اللامى، 2016، ص9). والعبارة الأخيرة تظهر دلالة العنوان الذي يبدو لأول وهلةٍ لا علاقةً له بالمتن، فهو كناية عن الدمار والخراب اللذين حاقا بالبلاد والعباد.

ثنائية الحرب والسلام

تستحوذُ الثنائية الضديّة (الحرب/ السلام) على بنية الرواية، في الفضاءين الروائيين (البصرة/ تايلند)؛ إذ عالجهما (الراوي) على وفق منظورين مختلفين: تايلاند وهي تحتفل بعيد رأس السنة الجديدة (السونجكران) ولكن بطريقة خاصة؛ إذ يخرج الأطفال والكبار وهم يحملون الأسلحة من (السوبر ماركت) لكنها أسلحة بلاستيكية إلى جانب أكياس ملأى بـ (فواكه البابايا، والموز، والتفاح، مع علب من البخور، وباقات الزهور، فلا موت في (السونجكران)، كما طمأنت (مس سريلانك) نعيم ضايح.

والبصرة، وهي تكتظُّ بالمسلحين، وصور الموت، صورة "جثة رأيتها ملقاة على الرّصيف في ساحة (أمّ البروم) وحولها تدور، تشبّعها ركلاً وضرباً مجموعة من القروء" وصور "عشرة شباب صغار في السنّ، ملثمين ويرتدون ملابس سوداء ، يحملون في أيديهم مسدّسات ، كانوا يعدون بأثر شابٍ صغيرٍ ... يرتدي ملابس جينز ضيقة وشعره ... سبايكي حتّى إذا لحقوا به، أمسكه أحدُهم من الخلف، وبدأوا جميعاً بضربه والانكفاء عليه، إلى جانب صورة (نقته) الذي طال كلحية رجل دين عجوز، وشعره المهمل اللذين تركهما بسبب اعتكافه في البيت بسبب وجود المسلّحين، على الرغم من وصف (تقيّة) لهم بأنّهم "لمة زعاطيط" (اللامى، 2016، ص41).

هذه الصور الحاملة للأنساق هي من الصور المضادّة لما رآه في تايلند، وهي تعيشُ أفرحها. والبصرة، وهي تعضُّ على جراحاتها من دون أن تقدّر على مواجهة الموت، "الشارع ضاح بالناس لكنّهم وقفوا جميعاً يتفجّون، نقطة تفتيش عسكريّة قريبة من المكان أفرادها أيضاً غير مباينين" (اللامى، 2016، ص14).

حيّ العبيد

من الثنائيات الضديّة الأخرى، وهي تحملُ نسقاً اجتماعياً ، صورة (حيّ العبيد)، وهم يعزلون عن المجتمع، وينغلقون على نواتهم، ويعاملون على أنّهم مواطنون من الدرجة الأخيرة، وليس أدلّ على ذلك إقصاؤهم من أدنى الوظائف، وإن كان (مشغل مولدة) في حيّهم السكنيّ، والصورة المقابلة لذلك، صورة (أنغوبي) المدربة النيجيريّة والمرأة ذات اللون الأسود، وهي تتصدّر وفد بلادها، وتقرضُ رؤيتها على الوفود: "نحن نفضلُ قضاء العطلة في صالات الموسيقى ببانكوك يا أنسة" (اللامى، 2016، ص24)، فلون بشرتها الأسود لم يمنعها من رئاسة وفد بلادها ولا من فرض رؤيتها، وهنا يستحضّر الراوي صورة أهالي (حيّ العبيد) وهم يشكون مشغل المولد (فنجان) الذي أسّسَ من الناصريّة، ولم يجدوا في أحدهم القدرة على القيام بهذا العمل.

وربّما يومئُ (الراوي) إلى مسألة أكبر من ذلك، وهي إقصاء البصرة كلّها من المناصب التنفيذيّة، وإناطتها بأخرين في محافظات بعينها؛ لذلك تشظّت دلالة (حيّ العبيد) من أنّه حيّ معزولٌ ومهمّشٌ إلى أن يكون ممثلاً للبصرة كلّها، وهنا تكون الوطأة أكثر تأثيراً عليهم، بل يذهبُ (الراوي) إلى أدق التفاصيل، فيبني عليها ثنائيات أخرى، عبر توظيفه للتداعي الحر، فقد لا تلفت الانتباه (صورنا)، ونحن نضع أيدينا في جيوب (بنطالاتنا)؛ لكنّ هذه الصورة سرعان ما تستدعي من مخزون الذاكرة صورة (نعيم) وهو يضع يده في جيب (بنطاله) في سنوات الشباب وهو برفقة أصدقائه في الكورنيش يترنمون بلحن أغنية وبيادلون الفتيات المنتزّعات نظرات ناعسة (اللامى، 2016، ص77). فكأنّ (الروائيّ) يشيرُ إلى خراب البنية الاجتماعيّة في البصرة، وتراجع الصوت المدنيّ الذي رمز له بـ (الجينز) وانكفاء المرأة في المجتمع البصريّ على ذاتها، فلم يُعد لها ذلك الحضور البهيّ في مجتمعا، بعد أن غيّبها الصوت الذكوريّ، وانتشار الثقافة الدينيّة المنظرّفة، التي من الممكن أن تجعل الإنسان فاقداً جزءاً من جسده أو جسده كلّه بسبب سرّوالات يرتديه، وبذلك يمكن أن تنهض هنا ثنائية الحرّيّة التي مثّلتها (تايلاند) واتسمت بها، وغياب الحرّيّة في المجتمع العراقيّ الذي مثّلته (البصرة) على أحسن وجه.

ثنائية الأسماء علامة

أما الثنائيات الأخرى على صعيد الشخصيات فهي ثنائيات أسماء الشخصيات، وهي تحضر في بطل الرواية الذي حمل اسم (نعيم) وهو لم يرَ النعيم في يومٍ ما، ممّا دفعه إلى التفكير في أن يتبرأ من كلّ ماضيه، وبلدته أيضاً، في حوارٍ مع نفسه؛ إذ يقول: "أيتها المرأة ما إن اجتزت حدود بلدي ووصلت إلى عمان حتى قلت لنفسي: دع يا (نعيم ضايغ) كلّ شيءٍ خلف ظهرك، اغتم أيام سفرتك... لا تفكر إطلاقاً في ماضيك، لا تفكر ببلدة تعود دائماً كبول البعير إلى الوراء" (اللامي، 2016، ص65).

وهكذا يبدو التضاد بين (نعيم) وواقعه الاجتماعي الذي لم يفلح بالتصالح معه، والتماهي معه؛ فقد بقيا يسيران باتجاهين مختلفين.

والشخصية الأخرى (تقيّة) التي كانت يداً حانيةً على (نعيم) منذ أن عوضها الله عن عجزها بولادة طفل؛ فكانت تقيّة معه في كلّ صور حياته وتقلباتها؛ حتى أنها أقامت مأتماً بكائياً حين سمعت خبر سفره إلى تايلند، فضلاً عن وصاياها السبع (اللامي، 2016، ص74) التي حملتها نعيم. أقول: لم يشأ الراوي أن يخرج (تقيّة) ظافرة في هذا المجال، من دون أن يسقطها في بئر الرذيلة التي لا تستقيم مع اسمها، وأعني - هنا - فسحها المجال أمام امرأة أرملة شابة لتختلي مع نعيم في لحظة وصفها نعيم نفسه بالمبيته "لكنني في اللحظة الأخيرة مع عودة تقيّة من مشوارها المبيت والمقصود تداركت أمري" (اللامي، 2016، ص74). وهو ما تجسّد في حديث (تقيّة)، و(نعيم) بشأن ما حدث مع المرأة الأرملة؛ إذ يقول نعيم: "في الليل أسرتني تقيّة وبطنها اللحيمة تهتّر من الضحك بعد أن كسرت صمتي وحكيت لها عمّا دار بيني وبين الأرملة الصغيرة من حديث" (اللامي، 2016، ص56).

تشابكت الثنائيات الضدية في الرواية، وكأنّ المتن الروائي مكتوب؛ لكي يزخر بالثنائيات التي لا تحدّها حدود، والأنساق التي تتوالد وتتناسل، ليأتي المتن الروائي محملاً بحمولات الإدانة للحقبة السياسيّة الماضية والحالية على حدٍ سواء. وليس مصادفة أن يجيء ميلاد (نعيم ضايغ) في عام 1979/7/1م، فهذا التاريخ اقترن بصعود الطغمة الديكتاتورية إلى سدة الحكم (اللامي، 2016، ص93)؛ فالروائي أراد من خلال توظيفه أن يغمز إلى عدم شرعية ولادة هذه الحقبة السياسيّة، مثلما كانت ولادة (نعيم ضايغ) غير شرعية، وجاءت عن نزوة عابرة، كانت سبباً رئيساً لمعاناة (نعيم ضايغ). وقبل هذه الثنائيات يحاول الروائي أن يجعل هذا التاريخ بداية لمعاناة العراقيين من جهة، ومعاناة نعيم نفسه من جهة أخرى. وهو أمرٌ يظهر أنّ هذه الرواية ليست رواية توثيق لآلام نعيم فحسب؛ بل هي رواية توثيق وإدانة لحقبة سياسيّة حفلت بالتصفيات الجسدية، والحروب، والحصار، والاحتلال على الرغم من أنّ الزمن الحقيقي لكتابة الرواية لا يتجاوز الـ (سبع ساعات)؛ لكنّها تمددت على حقبة سياسيّة طويلة عبر تقنية الداعي الحر، التي أبرزت الثنائيات وعززتها، ومن ثمّ كشفت عن الأنساق المضمرّة التي تحفّت عبر تلك التقنية.

ومن الشخصيات التي سلط (الروائي) عليها الأضواء (تومان)؛ فهو من اسمه يبدو إشكالية؛ ف (التومان) هو العملة الرسميّة في إيران، وأصل كلمة (تومان) يرجع إلى الكلمة التركيّة (تومين) التي تعني 10,000. فكأنّ (الراوي) يلمح إلى غياب هوية (تومان) وتوزّعها عبر هذه التسمية. ومن جهة أخرى، ف(تومان) لم يستقرّ على حالٍ واحدة؛ فقد تحوّل - والكلام للروائي - ثلاث مرات، المرة الأولى كان بذراعين، أصبح بعدها بذراعٍ واحدة" هاتان الصورتان تفصحان عن التحولات التي مرّت بها هذه الشخصية عبر زمنين مختلفين (سلم وحرب).

في حين تأتي الصورة الثالثة، لتظهر (تومان) في عام 2003م، وهو يظهر في التلفزيون الأمريكي "بمسوحه السوداء وبنديته في يده المتبقية له، يلوح بها ويهدد عدوا يراه، يهجم عليه، يودّ بتر ذراعه الثانية، أو اقتلاع عينيه" (اللامي، 2016، ص95)؛ لكنّه لم يقف عند تلك الصور الثلاث، فقد ظهر (تومان) وهو يعلن عن نفسه لـ (نعيم) أنّه من "خدام الإمام" (اللامي، 2016، ص96). وأنّه على ارتباط برجل جماعة دينية له كرامات كثيرة، داعياً (نعيم) لينضمّ إليها.

فالمصور الأربع التي غلّفت شخصيّة (تومان) ليست محصورة به؛ فيمكن أن نجد ما يشابهها في كثير من الناس الذين تحوّلوا بين يوم وليلة من حال إلى حال. ف(تومان) إذن أنموذج لتحوّلات الشخصيّة العراقيّة وازدواجيّتها التي كُتبت عنها الكثير، وصار الحديث عنها معادًا مكرورًا.

فشتان ما بين تومان قبل، وهو "يركب عربة النفط التي تجرّها فرسه البنية الحمراء ... جلد كرسي عربة النفط أسود وممزّق مثل وجه تومان" (اللامي، 2016، ص97). وتومان وهو يعيّن وزيرًا للنفط، وهذه اشارة مهمة أراد (الروائي) منها أن يصبّ جام غضبه على المنظومة السياسيّة التي مزّقت جسد الدولة، وأساءت إلى بُنيّتها، عبر تقديمها لوجوه غير مؤهّلة لتتصدّى لإدارة الدولة العراقيّة.

خاتمة وتقويم

بعد هذه القراءة المستفيضة لمتن الرواية يبرز سؤالان محدّدان هما: الأول: لماذا ترك (نعيم) في حيّ العبيد ولم يُترك في حيّ آخر؟ وما الرسالة التي قصدها الروائي؟ والآخر: لماذا اختار الروائي لمتن روايته أن تكون البصره فضاءً روائياً لروايته؟ وربما يبرز سؤال ثالث، لماذا حيّ العبيد أصلاً؟

لا يمكن الإجابة عن هاتيك الأسئلة دفعة واحدة، أو أفراد كلّ سؤال على حدة؛ لأنّ قراءتنا النهائيّة أجابت عنها بشكلٍ مفصّل. لكنّ من المهمّ القول: إنّ وجود (نعيم) ليس مصادفة؛ بل هو جزء من تفكير المجتمع البصريّ لطبقة اجتماعيّة معيّنة؛ لم تسلم من إصاق التهم بها، وقد تصل إلى التشكيك بشرفيّتها، حين جعل هذا الطفل أبيض البشرة، أو أنّه يريد أن يركّز هذه النظرة؛ وإن كان (نعيم) أبيض البشرة؛ فهو لا يُبرئ هذا الحيّ من علاقة غير شرعيّة انتجت طفلاً؛ كانت جلّ معاناته أنّ يبحث عن هويّته التي ضاعت بين هذا وذاك.

أمّا لماذا البصرة؟ فالبصرة بحكم موقعها الجغرافيّ كانت مكاناً للسّياح من مختلف الدول القريبة؛ فضلاً عن أن نهاية السبعينيّات كانت بداية عسكرة المجتمع العراقي، ووجود الجيش في أيّة بلدة، يمكن أن يحدث شرخاً في المنظومة الأخلاقيّة في أيّ مجتمع، فالروائي أراد أن يدين الحقبة السابقة بكلّ ما فيها؛ لأنّها كانت سبباً رئيساً في إحداث هذا الشرخ الأخلاقيّ في البنية المجتمعيّة في العراق بشكلٍ عام. لذلك من المهمّ لو التفت (الروائي) إلى قضيّة الحرب العراقيّة الإيرانيّة بشكلٍ أكثر، وأنّه جعل (نعيم) من مواليد الثمانينيّات؛ لتكون تلك الولادة إدانة للحرب التي لم تجلب الموت فحسب؛ بل إنّها خرّبت المنظومة الاجتماعيّة بشكلٍ كبير، وما ولادة نعيم إلّا جزء من ذلك الضياع الذي شهده هذا الجيل والأجيال التي تلتته.

وما دما نتحدّث عن مواضع الخلل التي انتابت الرواية؛ فليس صحيحاً أن تستثني هذه القراءة لغة الرواية، فعلى الرغم من أنّ الروائي كان واعياً في توظيف لغته؛ لكنّه تمرد في مواضع عديدة على قوانين اللغة، فاندست الألفاظ العاميّة في السياق؛ ممّا أحدث خللاً واضحاً في روايته، حتّى صرنا أمام ألفاظ عاميّة أخذت مكانها في السّياق، ولم يضعها (الروائي) بين مزدوجين مثلاً، فضلاً عن ذلك، هناك استطراد كبير وشرح لا موجب له، أثقل متن الرواية، وكأنّ همّ الروائي هو جمع عددٍ كبيرٍ من المعلومات والأحداث، التي أضرت بالثيمة الأساس التي كتبت الرواية من أجلها.

وأخيراً، رواية (الرمال الأسود) عرّت الحقيقتين: السابقة واللاحقة، وانتقدت العهر السياسيّ الذي أنتج جيلاً كاملاً عانى الضياع بكلّ صورته، ولم يستطع أن يبلور قيماً اجتماعيّة جديدة، وبقي حبيس الأزمات والحروب، فمن لم يصبغ في الحرب ضاع في تداعياتها الاجتماعيّة، إلى أن صرنا أمام جيلٍ خائفٍ مشوّه، بلا طعم ولا رائحة.

الإحالات

- أبو المعاطي خيرى. (2 حزيران، 2014). صراعات إثبات الهوية في الخطاب الروائي السعودي المعاصر: صراعات المرأة الوافدة في (البحريات) نموذجاً. مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات.
- أسعد اللامي. (2016). الرمل الأسود. سوريا-السويداء: دار ليندا للطباعة والنشر والتوزيع.
- بيتر كوزين. (2010). البحث عن الهوية "الهوية وتشتتها في حياة إيريك إريكسون وأعماله" (المجلد 1). (سامر رضوان، المترجمون) العين، الإمارات العربية المتحدة: دار الكتاب الجامعي.
- حبيب نورس. (2014). الرواية العراقية من منظور النقد الثقافي: دراسة في تحولات الأنساق الثقافية (المجلد 1). بغداد، العراق: دار الشؤون الثقافية العامة.
- سماح عادل. (18 أكتوبر، 2019). <https://kitabab.com/cultural>. تم الاسترداد من كتابات: <https://kitabab.com>.
- سمية عوار، و صونية عيش. (2017-2018). إشكالية الهوية في الرواية العربية المعاصرة-رواية "اليهودي الحالي" لـ"علي المقري" أنموذجاً. متكرة ماستر. الجزائر: جامعة محمد الصديق بن يحيى.
- عبد اللطيف خليفة. (2003). دراسة سيكولوجية الاعتزاز (المجلد 1). القاهرة، مصر: دار الغرب للطباعة والنشر.
- كلود دوبار. (2008). أزمة الهويات (المجلد 1). (رندة بعث، المترجمون) بيروت-لبنان: المكتبة الشرقية.
- ميجان الرويلي، و سعد البازعي. (2005). دليل الناقد الأدبي (المجلد 4). بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.
- هاني الجزار. (2011). أزمة الهوية والتعصب دراسة في سيكولوجية الشباب (المجلد 1). الجيزة-مصر: هلا للنشر والتوزيع.
- يحيى العلوي. (2002). الطراز (المجلد 1). بيروت، لبنان: المكتبة العصرية.